

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٩ - سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية ، وآياتها ست . قال ابن كثير : ثبت في صحيح مسلم ^(١) عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ! علمني شيئا أقوله عند منامى . قال : إذا أخذت مضجك من الليل فاقرأ : قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال في (الباب) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام . وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى ، وهي من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب . فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى في تفسير الإخلاص سر آخر .

(٢١) هذان الحديثان أملى التنقيب عنهما ولم أعثر عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٢١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كما هنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه عن فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

[٢] (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[٣] (وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٤] (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ)

[٥] (وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حجته واتضحت محجته «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَا أَنَا عَابِدٌ» أى فيما استقبل «مَّا عَبَدْتُمْ» أى فيما مضى «وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبداً «مَا أَعْبُدُ» أى الآن وفيما استقبل - هكذا فسرہ الإمام ابن جرير^(١) رحمه الله. ثم قال: وإنا قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ فى أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك فى السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم. وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم فى وقت من الأوقات. وآيس نبي الله ﷺ من الطمع فى إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافراً. ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا قال : لقي الوليد بن المغيرة (١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هلم، فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله. فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ..) السورة. وفي رواية: وأنزل الله في ذلك هذه السورة، وقوله^(١) (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَ بِأَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفي العبادة حالا. كما أن الأوليين لنفيها استقبالا. قال أبو السعود: وإنما لم يقل (ما عبدت) ليوافق (مَا عَبَدْتُمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى. وإشار (ما) في (مَا عَبَدْتُمْ) على (مَنْ) لأن المراد هو الوصف. كأنه قيل (ما أعبد) من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقدر قدر عظمته. وقيل: إن (ما) مصدرية. أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذى) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ) ثانياً تأكيداً لمثله المذكور أولاً. انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية؛ أن المراد بقوله (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) نفي الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) نفي قبوله لذلك بالسكينة، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك. ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعى أيضاً. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون (ما) في الأوليين موصولة وفيها بعدها مصدرية ، قال: ففاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في المعبود . وفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة . فلا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٤ و ٦٦] .

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن النكد والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين ، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخصصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) كما أن قوله تعالى « وَلِي دِينِ » تقرير لقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ) والمعنى أن دينكم ، الذى هو الإشرāk ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لى أيضا ، كما نطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدلل الإمام الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشئ الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَيْئًا) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٦٦٦٤ (طبعة المعارف) .